الزمن في السرد الروائي [مفهومه وحدوده وتقنياته]

د. محمد علي البنداق
كلية الآداب الزاوية – جامعة الزاوية

تقديم:

حظي الزمن باهتمام الفلاسفة والعلماء والأدباء على مر العصور ، ونظرا لما يتمتع به من أهمية في حياة الإنسان وتعلق هذه الأخيرة به في وجودها وعدمها ، في ميلادها وموتها ، في حركتها وثباتها ، لحظة حضورها وغيابها ، وساعة بقائها وزوال أجيالها، فالزمن وعبر هذه الثنائيات يفرض نفسه علينا وكأنه" هو وجودنا نفسه ، هو إثبات لهذا الوجود أولا ثم قهره رويدا رويدا بإبلاء آخر ، إن الزمن موكل بالكائنات ومنها الكائن الإنساني ، يتقصى مراحل حياته ويولج في تفاصيلها بحيث لا يفوته منها شيئا. . . موكل بالوجود نفسه أي بهذا الكون يغير من وجهه ويبدل من مظهره"[1] وهذا التبدل يرسم في أذهاننا شبح الزمن بصورته الوهمية التي تسكننا جالسا على أعتاب وجودنا دون أن نراه فعلا فقط يتملكنا وعي نسبي به يجعلنا نخاله سيلا متدفقا ومستمرا " من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل وفي سيلانه حركة تحمل الصيرورة والتحول والتغير " [2]فتتجلى آثاره فينا وفي كل ما يحيط بنا.

الفهم الفلسفي للزمن:

وإذا كان الفلاسفة والأدباء قد اختلفوا حول مفهوم الزمن ولم يتفقوا على تعريفه ولا على كيفية تصوره ، فإن شتات آرائهم المتنافرة قد اتفقت واجتمعت حول تحديد أنواعه وإبرازها من خلال نوعين اثنين هما: الزمن الطبيعي" الكرونولوجي :"[3] الذي يشير إلى زمن غير متناهي الوجود يسير دائما نحو الأمام ، فهو عبارة عن جريان منتظم يمضي دائما نحو الأمام بحركته لا يلتفت إلى الخلف ولا يمكنه العودة إلى الوراء نتعامل معه وعلى الدوام " كتدفق أحادي الاتجاه وغير عكسي شبيه بشارع وحيد الاتجاه "[4] ، وهو كذلك زمن موضوعي لا يمكن تحديده عن طريق الخبرة ، فهو مستقل عن خبراتنا وتجاربنا الشخصية ، فيضفي عليه سمة الصدق التي تتعدى به حدود الذات فينبع من بوتقة الطبيعة الحقة التي

تتخطى به هواجس الخلفية الذاتية للخبرة الإنسانية فنكون بذلك قادرين على أن نحدده بواسطة "التركيب الموضوعي للعلاقة الزمنية في الطبيعة "[5] ، وهو إلى جانب ذلك "زمننا العام والشائع الوقت الذي نستعين به بوساطة الساعات والتقاويم وغيرها ، لكي نضبط اتفاق خبراتنا الخاصة للزمن بقصد العمل الاجتماعي والاتصال والتفاهم وغيرها "[6] مما يجعلنا قادرين على قياسه بمعايير ثابتة.

ويمكن أن نتمثله في العديد من المظاهر كتعاقب الفصول ، ودورة الليل والنهار وبدء الحياة من لحظة الميلاد حتى لحظة الاحتضار والموت فهو يتحرك " ويتعاقب مجددا الطبيعة الأرضية. وهذا التجدد يكرر نفسه "[7]ليعطي للزمن عموما صفة ثالثة تضاف إلى صفتي الحركة والدوران ألا وهي صفة المعاودة والتكرار.

ولعل التقسيم الذي أورده عبد الملك مرتاض في كتابه "في نظرية الرواية" يوضح وبكثير من الشرح والتفصيل ما أعنيه ، فالزمن عند هذا الأخير يأتينا متمثلا في الزمن المتواصل الذي يرى بأنه ذلك " الزمن السرمدي المنصرف إلى تكون العالم وامتداد عمره وانتهاء مساره حتما إلى الفناء "[8] فهو زمن يسير " نحو المستقبل مؤكدا حتمية الموت"[9] وهو في تواصله هذا يمضي دون إمكانية انفلاته من سلطان التوقف والانتهاء وهو بذلك زمن طولي في تواصله ما من شك في أنه انطلق من حدود نقطة ما وبأنه ماض حتما إلى الانتهاء عند نقطة ما.

والزمن المتعاقب الذي يسميه أيضا الزمن الكوني فهو زمن دائري مغلق على نفسه متعاقب متتابع الحركة يمسك بعضه بيد البعض الآخر دون إفلات ضمن حلقة تبدأ من حيث تنتهي"مثل زمن الفصول الأربعة التي تجعل الزمن يتكرر في مظاهر متشابهة أو متفقة. . . وهذا الزمن لا يتقدم ولا يتأخر وإنما يدور حول نفسه"[10] وهو يتميز بالتكرار واللانهائية وهذا المفهوم ساد في "الأساطير التي ترمز إلى تجدد الحياة وانبعاثها "[11]ضمن مسار متشابه ومختلف في الآن ذاته ناسخا لنفسه من جهة ومغيرا للعالم الخارجي من جهة أخرى.

أما الزمن المنقطع أو المتشظي فهو الزمن الذي يخصص لحدث أو لحي معين حتى إذا انتهى إلى غايته وتوصل إلى هدفه ورسم نقطة توقفه ووضع معالم انتهائه ومثله الزمن

المخصص "لأعمار الناس ومدد الدول الحاكمة"[12]وهو زمن غير متكرر لا مناص له من الانقطاع والتوقف عند نقطة ما.

وكذلك الزمن الغائب المتصل والمتعلق" بأطوار الناس حين ينامون وحين يقعون في غيبوبة وقبل تكون الوعي بالزمن الجنين والرضيع"[13]وهو بذلك الزمن الذي تغيب فيه قدرة الإنسان على الوعي بالزمن وإدراك الحدود والعلاقات الزمنية بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وهذه الأزمنة الأربعة التي يقدمها عبد الملك مرتاض ويفصل القول فيها تدخل في عمومها ضمن الزمن الطبيعي الذي يظل ورغم تمايزها يربطها بذلك الخيط الوهمي واللامرئي ويجمع شتاتها تحت سلطته على اعتبار أنها أزمنة خارجية وبعيدة عن حدود الذات لا يمكن للإنسان بأي شكل من الأشكال أن يتدخل في توجيهها حتى وإن ظلت تلامس الذات من ناحية الأثر الذي تتركه عليها.

ومثلما يخضع الإنسان لزمن طبيعي يحكم السيطرة عليه يمتلك هو الآخر زمنا ذاتيا يخضعه ويتصرف فيه وفق معطياته ومتطلباته النفسية ، إنه الزمن النفسي أو السيكولوجي، فهو على اتصال بوعيه ووجدانه وخبرته الذاتية ، و يرتبط أساسا بإحساس الإنسان "وهو على عكس الزمن الطبيعي لا يقبل القياس ويفلت من كل معايير التحديد الخارجية بمقاييسها الموضوعية كونه نسج خيوطه من تلك التموجات النفسية التي تشكل" تيار حياتنا الداخلية"[14] التي لا تتعايش مع نمط سيرورة عقارب الساعة كون هذه الأخيرة لا تقدم بطاقة هوية مكتملة العناصر عن الزمن الحقيقي الذي نبحث عنه فلا نجده إلا في خبرتنا اليومية بل في أعمق أعماقها وهذه الخبرة اليومية والتجربة الحياتية يختلف إحساسنا بها وتتباين وجهات نظرنا إليها رغم كونها تجربة مشتركة بيننا لأن لكل منا زمنه الذاتي الخاص ، فلا يوجد زمن تشترك فيه نفسان ولعل هذا ما جعله زمنا نسبيا داخليا " يقدر بقيم متغيرة باستمرار "[15]وهذه القيم هي في الواقع قيم ترتبط بنا وبالذاتية التي تنبع من وجودنا.

بهذا يكون الزمن النفسي زمنا تعطيه الذات صبغة خاصة وتضفي عليه لمسة متفردة محولة إياه من زمن عادي إلى زمن غير عادي ، تطيل مدته القصيرة إلى درجة نحس معها بعدم وجود نهاية لها ، وتقصر مدته الطويلة حتى لا نكاد نشعر بانقضائها ، فالأولى

نشهدها في حالات الشدة والضيق والقلق ، والثانية نعيشها في لحظات السعادة والفرح فترقص ذواتنا بذلك على إيقاع الواقع النفسي الذي نعيشه.

والزمن النفسي يسمح للإنسان– على عكس الزمن الطبيعي – بالتنقل بين الأزمنة كونه يمتلك القدرة على تخطي حدودها وتجاوز تقسيماتها الخارجية ، كما يمتلك تأشيرة التنقل الحر بين الماضي والحاضر والمستقبل ، هذا التنقل الذي مكن الإنسان من كسر خطية الزمن على مستواه النفسي مما أعطاه فرصة العيش في الماضي وهو في غمرة الحاضر وفرصة تجاوز الحاضر ومسابقته إلى اعتناق المستقبل بأحلامه وتطلعاته ، ومن ثم أصبح الإنسان يمتلك إمكانية العيش في عوالم مختلفة متجاوزا بذلك لحظة الحاضر الذي يحاصره. من خلال ما سبق نجد الزمن الإنساني يتجلى من خلال الزمن الطبيعي على اعتباره إطارا خارجيا والزمن النفسي كونه المحرك الداخلي ، فما هي يا ترى حدود التفاعل القائم بين هذين الأخيرين على مساحة الوجود الإنساني ؟ وما نوعية العلاقة القائمة بينهما في هذه المساحة ؟ وما مدى تأثير كل منهما في الآخر؟

إذا ألقينا نظرة على حياة الإنسان وجدناه يخضع ومنذ بدء حياته لكلا الزمنين دون أن يكون بمقدوره وضع حد فاصل بينهما أو أن يبني ولو وهما جدارا ممتدا تحدد به جغرافية امتداد كل واحد منهما مانحا لنفسه فرصة التعامل مع لحظات الزمن الأول(الطبيعي) على مساحته الخارجية والتعايش مع لحظات الثاني (النفسي) بإيقاعه الداخلي ، ومن ثم تولد لديه وعي كامل باستحالة العيش وفق إيقاع زمن واحد سواء كان هذا الزمن موضوعيا أو ذاتيا كون الزمنين يتكاملان فيما بينهما ويحققان بامتزاجهما عالما واحدا يحيا فيه .

بهذا التبادل تتكشف عرى العلاقة الوطيدة التي تربط بين الزمن النفسي والزمن الطبيعي ، فعلى الرغم من استقلالية الثاني وعدم ارتباطه بالذات وتعامله المباشر مع المقياس الزمني المحدد بالساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنوات ، فإن الزمن الأول (الزمن النفسي) يغوص في أعماق هذه الوحدات محاولا سبر أغوار إحساسنا بها والكشف عن تفاعلنا الداخلي مع لحظاتها .

أهمل كتاب الرواية الحديثة الزمن الموضوعي (الخارجي) واهتموا بالزمن النفسي (الداخلي) وقدموا رواية حديثة يختلط فيها الذاتي بالموضوعي ، فلم يعد للعالم الواقعي من وجود إلا

بالقدر الذي ينعكس في وعي البطل " وبدأت الوحدات الزمنية الصغيرة غير المحددة تحتل مكانة الوحدات التقليدية العريضة ، وأصبحت اللحظة أكثر دلالة من السنة" [16]، لذلك عد الزمن من أهم العناصر الأساسية التي يقوم عليها الخطاب الروائي ، فلا يمكن تصور الحدث الروائي بمعزل عن الزمن فهو "يؤثر في العناصر الأخرى وينعكس عليها"[17] ، فالأحداث والشخصيات تكون حركتها وتشكلها وسط فضاء زمني وكذلك السرد ، فلا يتم إلا بوجود الزمن " ففي لحظة ما يسترجع السارد الماضي أو يستشرف المستقبل لأن الرواية ليست بنية ثابتة الكيان والتشكيل يمكن التقاطها بوضوح"[18] .

في الرواية التقليدية كان الحدث يقدم في خط متسلسل تسلسلا زمنينا فقد " كان القاص البدائي يقدم لسامعيه الأحداث في خط متسلسل تسلسلا زمنيا مضطرا وبنفس ترتيب وقوعها ، وتمثل الأحداث الوحدات الأساسية التي يتكون منها القص في تسلسله"[19].

حدود الزمن نقديا:

اهتم البنيويون ومن قبلهم الشكلانيون بدراسة الزمن وميزوا بين زمنين: زمن الحكاية وزمن الحكي ، وتحدثوا عن زمن الكتابة وزمن القراءة ، واهتموا بزمن المغامرة أو العصر الذي تقع فيه الحكاية التي تحكى وهو زمن تخيلي يقع داخل النص الروائي ، فيطالعنا الزمن الموضوعي بكل دلالاته الطبيعية الأرضية والزمن الذاتي النابع من التجربة الإنسانية والشعورية للإنسان المتمثلة في وعيه ووجدانه وخبراته الذاتية فهو" يرادف معنى الزمن في الرواية معنى الحياة الإنسانية العميقة معنى الحياة الداخلية معنى الخبرة الذاتية للفرد ورغم تجذرها في أغوار النفس الفردية هي خبرة جماعية والزمن الروائي هو الصورة الحقيقية لهذه الخبرة "[20].

إن أهم تقسيم للزمن التخيلي ظهر عند الشكلانيين فيما اصطلح على تسميته بزمن القصة وزمن الخطاب ، فزمن القصة: هو زمن المادة الحكائية في شكلها ما قبل الخطابي ، إنه زمن أحداث القصة في علاقتها بالشخصيات والفواعل (الزمن الصرفي) ، أما زمن الخطاب: فهو الزمن الذي تعطى فيه القصة زمنيتها الخاصة من خلال الخطاب في إطار العلاقة بين الراوي والمروي له (الزمن النحوي) ، فالزمن كما يراه البنيويون " يستخدم هيكلا

زمنيا معقدا يتم التعبير عنه بواسطة تقنيات هي: الاسترجاع والاستباق والتواتر والتزامن والتراكيب "[21].

ولعل دراسة "جيرار جنيت " من أهم الدراسات التي تناولت تقنيات الزمن ، فقد ميز بين الزمن الشيء المحكي وزمن الحكي أي أن هناك زمن دال وآخر مدلول ، وتتم دراسة نوعية العلاقة بين زمن القصة وزمن الحكي حسب العناصر الأساسية وهي: الترتيب – المدة – التواتر.

إن ترتيب الوقائع والأحداث في القصة يختلف عن ترتيبها في الخطاب السردي فتتولد المفارقات الزمنية التي تستلزم " دراسة الترتيب الزمني لحكاية ما من خلال مقارنة نظام ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السردي بنظام تتابع هذه الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة وذلك لأن نظام القصة هذا يشير إلى الحكي صراحة أو يمكن الاستدلال عليه من هذه القرينة غير المباشرة أو تلك ، ومن البديهي أن إعادة التشكيل هذه ليست ممكنة دائما وأنها تصير عديمة الجدوى في حالة بعض الأعمال الأدبية "[22] ، فالترتيب الزمني ينهض على مستوى الوقائع والأحداث وما يراه الراوي أو الكاتب في تنظيمه للأحداث.

أما المدة[23] فهي سرعة القص ، ويمكن تحديدها بقياس مدة الوقائع أو الوقت الذي تستغرقه وطول النص ويتم تحديد ذلك عن طريق التلخيص والحذف والمشهد والوقف.

أما التواتر فيتحدد بالنظر في العلاقة بين ما يتكرر حدوثه من أحداث وأفعال على مستوى الوقائع "القصة" من جهة وعلى مستوى القول أو الخطاب من جهة ثانية وينقسم التواتر إلى:

تواتر انفرادي ، وفيه نجد خطابا يحكى لمرة واحدة ما حدث ، وتواتر تكراري متشابه ، ونجده من خلال الخطاب الواحد الذي يحكي مرة واحدة أحداثا عديدة ومتشابهة ويتوزع على مدى صفحات من القصة.

وقد درجت الدراسات السردية عموما على التفريق بين زمنين في القص هما: زمن القصة وزمن الحكاية[24]، ويراد بزمن القصة: الزمن الطبيعي الذي تسير على وفقه مجريات

الأحداث على أرض الوجود بواقعية بكل دلالاته الطبيعية الفصول والسنة والشهر والأسبوع واليوم حيث يتحرك الزمان ويتعاقب مجددا نتيجة لحركة الطبيعة الأرضية ،

أما زمن الحكاية فهو يحاول أن يقوم مقام الزمن الحقيقي في القص[25] ، وفي هذا الزمن يكون التحكم في سير الأحداث بيد الراوي فهو زمن ذاتي نابع من التجربة الشعورية للإنسان المتصلة بوعيه ووجدانه وخبرته الذاتية.

التقنيات الزمنية:

ودراسة الزمن في المتن الروائي تكون بالكشف عن كيفية توظيفه ورصد علاقته ببافي عناصر البناء الروائي من خلال مفارقات زمنية محددة تعرف ببنية المفارقات الزمنية في الخطاب الروائي.

يشير" حسن بحراوي" إلى بعض الأنساق الزمنية الموجهة للعمل الأدبي ، ملخصا إياها في حركتين أساسيتين تسهمان في الدفع بعجلة السرد الروائي " فالحركة الأولى تتصل بموقع السرد من الصيرورة الزمنية التي تتحكم في النص وبنسق ترتيب الأحداث في القصة"[26] ، فالأحداث ترتسم في ذهن الكاتب بصورة متسلسلة ومرتبة ، إلا أن موقعها في السرد في بعض الأحيان يتطلب تغيير مجراها الخطي ، فهي إما تعود إلى الوراء لتسترجع وتستحضر بعض ما أخزنته الذاكرة ، وإما تسير نحو الأمام لتستشرف وتستبق الأحداث السابقة عن أوانها. ففي الحركة الأولى إذن نكون إزاء مفارقة زمنية ، إما سرد استذكاري يتغلغل إلى أحضان الماضي ويتجاوز الحاضر ، وإما سرد استباقي يتجاوز الحاضر ليتغلغل إلى أحضان المستقبل.

أما الحركة الثانية ، فترتبط بوتيرة سرد الأحداث في الرواية من حيث درجة سرعتها أو بطئها"[27] ، وهذه الحركة تتمثل في نوعين أو مظهرين أساسيين يساهمان في بناء المادة الحكائية ، الأول يعمل على تسريع السرد واختزاله إما من خلال الخلاصة أو الحذف ، والثاني يعمل على تعطيله إما من خلال المشهد أو من خلال الوقفة.

وتتجه الحركة الأولى من الزمن الحاضر(حاضر الرواية) إلى الوراء حيث ماضي الأحداث، وهذه العودة إلى الماضي تظهر من خلال تقنية الاستذكار(الاسترجاع) ، أما الحركة الثانية فتتجه من حاضر الرواية أيضا لكن اتجاهها يكون إلى المستقبل عن طريق

تقنية (الاستباق) ، وهذه المفارقة السردية تمنح للخطاب الروائي حيويته وفرادته وجماليته فتكون إزاء مفارقة زمنية توقف استرسال الحكي المتنامي وتفسح المجال أمام نوع من الذهاب والإياب على محور السرد انطلاقا من النقطة التي وصلتها القصة

إن تشكل المفارقات الزمنية تعني "دراسة الترتيب الزمني لحكاية ما ، من خلال مقارنة نظام ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السردي بنظام تتابع هذه الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة وذلك لأن نظام القصة هذا يشير إلى الحكي صراحة أو يمكن الاستدلال عليه من هذه القرينة غير المباشرة أو تلك ، من البديهي أن إعادة التشكيل هذه ليست ممكنة دائما و إنها تصير عديمة الجدوى في حالة بعض الأعمال الأدبية"[28]

وبنية الاستباق في الخطاب الروائي هي تقنية زمنية تخل بالنسق الزمني المتسلسل لأحداث الرواية " هو مفارقة زمنية سردية تتجه إلى الأمام بعكس الاسترجاع والاستباق تصوير مستقبلي لحدث سردي سيأتي مفصلا فيما بعد ، إذ يقوم الراوي باستباق الحدث الرئيسي في السرد بأحداث أولية تمهد للآتي وتومئ للقارئ بالتنبؤ واستشراف ما يمكن حدوثه أو يشير الراوي بإشارة زمنية أولية تعلن صراحة عن حدث ما سوف يقع في السرد"[29] ، فالقفز من الزمن الحاضر ومحاولة الولوج إلى المستقبل يجعل القارئ أمام مفارقة سردية فيكون إزاء تقنية لها تأثير كبير على حركية السرد وتتابع الأحداث والكشف عن خفايا الشخصيات. لهذا كان الاستباق عملية سردية تتمثل في إيراد حدث آت أو الإشارة إليه مسبقا قبل حدوثه وفي هذا الأسلوب يتابع السارد تسلسل الأحداث ثم يتوقف ليقدم نظرة مستقبلية ترد فيها أحداث لم يبلغها السرد بعد فتبقى حالة من التوقع والانتظار يعايشها القارئ أثناء قراءة النص لما يتوفر له من أحداث وإشارات أولية للآتي لتقبل ما سيجري من تغيرات وأحداث مفاجئة له.

والاستباق: هو "تصوير مستقبلي لحدث سردي سيأتي مفصلا فيما بعد ، إذ يقوم الراوي باستباق الحدث الرئيسي في السرد بأحداث أولية تمهد للآتي وتومئ للقارئ بالتنبؤ واستشراف ما يمكن حدوثه أو يشير الراوي بإشارة زمنية أولية تعلن صراحة عن حدث ما سوف يقع في السرد"[30].

تأتي تقنية الاستباق بالمقابل لتعبر عن مفارقة زمنية سردية تتجه نحو الأمام فهي تمثل تصويرا مستقبليا لحدث سردي ، حيث تتناول أحداثا سابقة عن أوانها يمكن التنبؤ بحدوثها ، وهذا ما يجعلها تضطلع بمهمة التمهيد والتوطئة لأحداث آتية يجري الإعداد لسردها من طرف أحد الشخصيات في الرواية.

والاستباق يجعل القارئ أمام مفارقة سردية تقفز به من زمن الرواية الحاضر إلى زمن مستقبلي متمثل في إشارات أولية تبقيه في حالة من الترقب والانتظار لما ستؤول إليه الأحداث.

والاستباق تقنية تلائم الرواية المكتوبة بضمير المتكلم ف"الشكل الروائي الوحيد الذي يستطيع الراوي فيه أن يشير إلى أحداث لاحقة هو شكل الترجمة الذاتية أو القصص المكتوب بضمير المتكلم ، ويستطيع الإشارة إلى الحوادث اللاحقة دون إخلال بمنطقة النص ومنطقة التسلسل الزمني[31]".

ونلاحظ "أن عملية الاستباق لها وظيفة التمهيد لأحداث لاحقة فتسمى هذه العملية باستباق تمهيدي أو قد تأتي على شكل إعلان عما ستؤول إليه مصائر الشخصيات ويسمي جنيت هذه الاستباقات "بالاستباقات الخارجية" لتمييزها عن الاستباقات التكميلية التي تأتي لتملأ ثغرة حكائية[32]".

ويعد الاسترجاع نوعا من أنواع الاحتيال الأرادي وبذل الجهد الفكري لاستعادة ما اندرس من ذكريات[33] ، وهو مفارقة زمنية يعود بوساطتها الراوي بقارئ نصه الى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة ، تلك اللحظة التي يتوقف فيها القص الزمني لمساق من الأحداث ليفسح المجال أمام عملية الاسترجاع .

كما يحقق الاسترجاع عددا من الوظائف والمنافع النصية التي تخدم السرد ، فضلا عن وظيفتي التفسير والتعليل فإن له وظائف أخر منها وظيفته التي يسعى من خلالها الراوي إلى ملء الثغرات الحكائية بوساطة تقديم المعلومات عن ماضي الشخصيات ، او من خلال الإشارة إلى أحداث سابقة على بداية السرد ، وهذه الوظيفة يطلق عليها (الوظيفة التوضيحية)[34] ، فضلا عن دوره في تخليص السرد من الرتابة والخطية وأهميته في الكشف

عن عمق التطور الحاصل في الحدث ، والتحول في الشخصية بين الماضي والحاضر ، وبذا يستطيع القارئ رؤية الآتي في ظل معطيات الحاضر واسترجاع الماضي.

ويتم الاسترجاع بوساطة طرائق عدة ، فهو إما أن يتم بطريقة السرد التقليدي عن طريق الراوي الذي يقوم برواية مامضى من أحداث ، او عن طريق إحدى الشخصيات القصصية[35] ، ووسيلة الاسترجاع في كلتا الطريقتين (الذاكرة) فهي أشبه ما تكون بالوسيط الناقل ، الذي ينقل الأحداث الماضية في ظل اللحظة الحاضرة للقص.

وقد تطور الاسترجاع بتطور الفنون السردية فانتقل إلى الرواية الحديثة حيث أصبح يمثل أهم المصادر الأساسية للكتابة الروائية ، وتكمن أهميته في اكتشاف وعي الذات بالزمن في ضوء تجربة الحاضر وما يحققه من أهداف دلالية وجمالية ، فهو يسهم في سد الثغرات التي يخلفها السارد الحاضر، و يساعد الاسترجاع على فهم مسار الأحداث وتفسير دلالتها أو العودة إلى أحداث سبقت إثارتها برسم التكرار الذي يفيد التذكير أو حتى لتغيير دلالة بعض الأحداث الماضية سواء بإعطاء دلالة لم تكن له دلالة أصلا أو لسحب تأويل حيث يبعد النص الروائي عن الخطية ويحقق سابق واستبداله بتفسير جديد"[36] يكون معه التوازن الزمني ويكون استرجاع الماضي في ظل معطيات الحاضر.

و ينقسم الاسترجاع حسب العلاقة التي تربط الأحداث السردية الماضية والحاضرة إلى قسمين وقد حددتها" سيزا أحمد قاسم "حسب رؤية"جنيت"لتصنيف الاسترجاعات كالتالي[37].

استرجاع خارجي: يعود إلى ما قبل بداية الرواية.

استرجاع داخلي: يعود إلى ماضي لاحق لبداية الرواية قد تأخر تقديمه في النص.

والاسترجاعات الخارجية، من خلالها يستدعي السارد أثناء السرد على اتجاهات زمنية ماضية مختلفة حدثت قبل بدء الحاضر السردي ، كما تلعب الاسترجاعات الخارجية دورا مهما في استكمال صورة الشخصية والحدث وفهم مسارها.

والنص الروائي يحتوي على إيقاع زمني داخلي يتراوح بين السرعة والبطء ، ويحدد هذا الإيقاع الراوي أو السارد الذي قد يكثف الحدث ليصل إلى مرحلة التوقف أو يختزله في أسطر ، ويعتمد الإيقاع الزمني على حركات سردية أربع هي: الخلاصة والحذف والمشهد والوقف ، فالنسق الزمني للسرد أو حركة السرد ترتكز على "الوتيرة السريعة أو البطيئة ، التي

يتخذها في مباشرة الأحداث ، وذلك عبر مظهريها الأساسيين: تسريع السرد الذي يشمل تقنيتي الخلاصة والحذف (. . . .) ثم تعطيل أو إبطاء السرد ، ويشمل تقنيتي المشهد والوقفة حيث مقطع طويل من الخطاب يقابل فترة قصصية ضئيلة "[38].

يستخدم الكاتب طرق متعددة لتسريع سرد الأحداث ، "فقد يضطر إلى استخدام طرق متعددة لصرف النظر عن عجزه في قول كل شيء باللجوء إلى المختصرات ، قفزات فجائية في الزمن ، حذف ، تسريع. . . . إلخ ، فإذا مرت سنوات بدون أن يحدث شيء مهم فإن الكاتب لن يخاف عندئذ من ترك فراغ في قصته ، وأثناء استعجاله للوصول إلى عصور خصبة بالأحداث سيرخي سدول الصمت على هذه الفترات المجدبة"[39].

الخلاصة أو التلخيص فهي مرور الروائي على أحداث استغرقت فترة زمنية طويلة ، ويقدمها لنا في مقاطع نصية قصيرة قياسا بالزمن الذي استغرقته ويعرفها جنيت بأنها "شكل سردي يتم فيه سرد أيام كثيرة أو شهور أو سنوات في فقرات أو صفحات قليلة دون التطرق إلى تفاصيل الأعمال والأقوال"[40].

ويعتمد التلخيص "على سرد أحداث ووقائع يفترض أنها جرت في سنوات أو أشهر أو ساعات ، واختزالها في أسطر أو كلمات قليلة دون التعرض للتفاصيل"[41].

ووظيفة الخلاصة تقديم الأحداث تقديما عاما قصد ملء الانقطاعات الزمنية في الرواية ومن وظائفها[42]: المرور السريع على فترات زمنية طويلة والإشارة السريعة إلى الثغرات الزمنية وما وقع فيها من أحداث.

أما الحذف فهو ترك جزء من القصة مسكوتا عنه في السرد بالكامل ، وأحيانا يشار إليه بعبارات زمنية مثل: مرت أيام عديدة ، أو بعد سنة ، أو سنين. . . . إلخ من العبارات التي تدل على الإلغاء الحكائي ، وهو وسيلة مهمة لإسقاط المسافات الزمنية الميتة والقفز بالأحداث إلى الأمام ، وحذف زمن لم يقع فيه شيء يؤثر على تطور أحداث الرواية[43].

وتكون الثغرة أو (الثغرة الضمنية) بالانتقال من حدث إلى آخر وإغفال ما تم بينهما[44] دون ذكر إلى إشارة زمنية ، "فالكاتب لا يستطيع الالتزام بالتتابع الزمني الطبيعي للأحداث فيضطر إلى الحذف الضمني (الثغرة الضمنية) ، وهذا النوع من الصعب استخراجه لأنه يتسم بالغموض والتعتيم"[45]، وكذا القفز فهو تخطي وحدات زمنية دون التحرك على مستوى

محور السرد اعتمادا على قرينة ، وترتبط القفزة بذاكرة الراوي أو السارد التي تنحاز إلى لحظات معينة فتدونها وتقفز على لحظات ليس لها دور وظيفي تكويني فتهملها "[46].

وينقسم القفز إلى نوعين:

– قفزة مقرونة بمؤشر زمني ويقوم السارد بتحديد المدة التي تم القفز عليها بواسطة مؤشر زمني محدد على الواقع.

– قفزة غير مقرونة بمؤشر زمني التي " يعتمد السارد فيها على الانتقال من وحدة زمنية إلى أخرى دون إقامة روابط أو الإشارة إلى الحذف الذي تم بقرينة زمانية معينة ، وذلك بغية خلق نوع من التسلسل الترابطي بين الأحداث المحكية في الخطاب "[47].

الخلاصة:

ظلت مقولة الزمن المقولة الأكثر حيرة للفلاسفة والأدباء ومثارا للجدل بينهم ، فحظي الزمن باهتمامهم على مر العصور، لما له من أهمية في حياة الإنسان .

وإذا كان الفلاسفة والأدباء قد اختلفوا حول مفهوم الزمن ولم يتفقوا على تعريفه ولا على كيفية تصوره ، فإن شتات آرائهم المتنافرة قد اتفقت واجتمعت حول تحديد أنواعه وإبرازها من خلال نوعين اثنين هما: الزمن الطبيعي الذي يشير إلى زمن غير متناهي الوجود يسير دائما نحو الأمام ، وهو كذلك زمن موضوعي لا يمكن تحديده عن طريق الخبرة ، وهو إلى جانب ذلك الزمن الذي نستطيع قياسه بمعايير ثابتة كتعاقب الفصول ، ودورة الليل والنهار ويتعاقب مجددا الطبيعة الأرضية ليعطي للزمن عموما صفة ثالثة تضاف إلى صفتي الحركة والدوران ألا وهي صفة المعاودة والتكرار.

إن التقسيم الذي أورده عبد الملك مرتاض في كتابه "في نظرية الرواية" يفسر تمظهرات الزمن عبر تقسيمه إلى : الزمن المتواصل، طولي في تواصله ما من شك في أنه انطلق من حدود نقطة ما وبأنه ماض حتما إلى الانتهاء عند نقطة ما ، والزمن المتعاقب أو الزمن الكوني مغلق على نفسه متعاقب متتابع الحركة يمسك بعضه بيد البعض الآخر دون إفلات ضمن حلقة تبدأ من حيث تنتهي ، وهو يتميز بالتكرار واللانهائية ، وزمن آخر منقطع متشظي يخصص لحدث ما ، حتى إذا انتهى إلى غايته وتوصل إلى هدفه ورسم نقطة توقفه ووضع معالم انتهائه وهو زمن غير متكرر لا مناص له من الانقطاع والتوقف عند

نقطة ما ، وكذلك الزمن الغائب الذي تغيب فيه قدرة الإنسان على الوعي بالزمن وإدراك الحدود والعلاقات الزمنية بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وللإنسان زمنه النفسي يتصل بوعيه ووجدانه وخبرته الذاتية ، و يرتبط أساسا بإحساسه بهذا يكون الزمن النفسي زمنا تعطيه الذات صبغة خاصة وتضفي عليه لمسة متفردة محولة إياه من زمن عادي إلى زمن غير عادي ، تطيل مدته القصيرة إلى درجة نحس معها بعدم وجود نهاية لها ، وتقصر مدته الطويلة حتى لا نكاد نشعر بانقضائها ، فالأولى نشهدها في حالات الشدة والضيق والقلق ، والثانية نعيشها في لحظات السعادة والفرح فترقص ذواتنا بذلك على إيقاع الواقع النفسي الذي نعيشه.

وقد اهتم البنيويون ومن قبلهم الشكلانيون بدراسة الزمن وميزوا بين زمنين: زمن الحكاية وزمن الحكي ، وتحدثوا عن زمن الكتابة وزمن القراءة ، واهتموا بزمن المغامرة أو العصر الذي تقع فيه الحكاية التي تحكى وهو زمن تخيلي يقع داخل النص الروائي ، وإن أهم تقسيم للزمن التخيلي ظهر عند الشكلانيين فيما اصطلح على تسميته بزمن القصة وزمن الخطاب ، فزمن القصة: هو زمن المادة الحكائية في شكلها ما قبل الخطابي ، إنه زمن أحداث القصة في علاقتها بالشخصيات والفواعل (الزمن الصرفي) ، أما زمن الخطاب: فهو الزمن الذي تعطى فيه القصة زمنيتها الخاصة من خلال الخطاب في إطار العلاقة بين الراوي والمروي له (الزمن النحوي) ، فالزمن كما يراه البنيويون " يستخدم هيكلا زمنيا معقدا يتم التعبير عنه بواسطة تقنيات هي: الاسترجاع والاستباق والتواتر والتزامن والتراكيب .

ولعل دراسة "جيرار جنيت " من أهم الدراسات التي تناولت تقنيات الزمن ، فقد ميز بين زمن الشيء المحكي وزمن الحكي .

الهوامش:

(1) – عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية ، ص19

(2) – مها حسن القصراوي ،الزمن في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان ،الأردن ط1 2004 ، ص11

(3) – لمزيد التفصيل ينظر: منير بعلبكي: قاموس المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت، 1987 ، ص177 ، وتطلق عليه أسماء أخرى مثل: الزمن الخارجي ، الزمن الموضوعي، زمن الساعة ، والزمن الطبيعي من أكثرها تداولا.

(4) – أحمد حمد النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، الأردن ، ط1 ،2004 ،ص23

(5) – محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي ، ص161

(6) – مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية ، ص22

(7) – السابق ، ص23

(8)– عبد المالك مرتاض ، في نظرية الرواية ، ص 204

(9) – محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي ، ص161

(10) – عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية ، ص204

(11) – السابق ، ص204

(12) – محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي ، ص 161

(13) – عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية ، ص204

(14) – مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية ، ص15

(15) – أحمد حمد النعيمي ، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة ، ص25

(16) – السابق : ص 38.

(17)– سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص 27.

(18) – زهيرة بنيني ، بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان "اطروحة دكتوراه" جامعة باتنة ، 2008 ، ص 157.

(19) – سيزا قاسم ، بناء الرواية ص 37

(20)– محمد سويرتي ، النقد البنيوي والنص الروائي ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ،المغرب، 1991 ، ص 10.

(21)– مرشد أحمد ، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله ، ص 234.

(22) – جيرار جنيت ، خطاب الحكاية ، تر: محمد معتصم وآخرون ، الهيأة العامة للمطابع الأميرية ، ط2 ،1997 ، ص 47.

(23) – ينظر: فاطمة الحاجي ، الزمن في الرواية الليبية ، ص 60.

(24). ينظر: جيرار جينيت ، خطاب الحكاية ، ص 46.

(25). ينظر: السابق ، ص 46.

(26) – السابق ، ص 119.

(27) – السابق ، ص 119.

(28) – جيرارجنيت ، خطاب الحكاية ، ص47

(29)– مها حسن القصراوي ، الزمن في الرواية العربية ، ص211

(30) – مها القصراوي ، الزمن في الرواية العربية ، ص 211.

(31) – سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص 44.

(32) – فاطمة الحاجي ، الزمن في الرواية الليبية ، ص 50.

(33) . ينظر: سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص 60.

(34) . ينظر: حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ص 130.

(35) . ينظر: شجاع مسلم العاني ،البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، 1987 ص 61.

(36) – حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ص122

(37) – سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص40

(38) – حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ص 144.

(39) – ينظر: رولان برونوف ، عالم الرواية ، تر: نهاد التكرلي،دار الشؤون الثقافية ،بغداد ط1، 1991 ، ص 120.

(40) – نقلا عن: فاطمة حاجي ، الزمن في الرواية الليبية ، ص 141.

(41) – حميد الحميداني ، بنية النص السردي ، ص 76.

(42) – ينظر: فاطمة حاجي ، الزمن في الرواية الليبية ، ص141.

(43) – فاطمة الحاجي ، الزمن في الرواية الليبية ، ص 159.

(44) – سمر روحي الفصل ، نهوض الرواية العربية الليبية ، ص 73.

(45) – فاطمة حاجي ، الزمن في الرواية الليبية ، ص 163.

(46) – عدوان نمر عدوان ، تقنيات النص السردي في أعمال جبرا إبراهيم جبرا الروائية ، رسالة ماجستير ، نابلس 2001 ، ص76.

(47) – حميد الحميداني ، بنية النص السردي ، ص 77.

المراجع :

1. أحمد حمد النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، الأردن ، ط1 2004
2. جيرار جنيت ، خطاب الحكاية ، تر: محمد معتصم وآخرون ، الهيأة العامة للمطابع الأميرية ، ط2 ،1997 .
3. عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية ،، نظرية الرواية (بحث في تقنية السرد) ، عالم المعرفة ، الكويت .
4. زهيرة بنيني ، بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان "اطروحة دكتوراه" جامعة باتنة ، 2008 .
5. حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط1 – 1990 –
6. عدوان نمر عدوان ، تقنيات النص السردي في أعمال جبرا إبراهيم جبرا الروائية ، رسالة ماجستير ، نابلس 2001 .
7. شجاع مسلم العاني ،البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، 1987
8. فاطمة حاجي ، الزمن في الرواية الليبية، الدار الجماهيرية للنشر ،مصراتة ، ط1 2000
9. رولان برونوف ، عالم الرواية ، تر: نهاد التكرلي،دار الشؤون الثقافية ،بغداد ط1، 1991 ،

10. حميد الحميداني ، بنية النص السردي ،، المركز الثقافي العربي ، بغداد ، ط1 – 1991 ،.
11. سمر روحي الفصل ، نهوض الرواية العربية الليبية ، المنشأة العامة للنشر طرابلس ، ليبيا ، 1983
12. منير بعلبكي: قاموس المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت.
13. محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2003 .
14. مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 2004
15. سيزا قاسم ، بناء الرواية ،، سلسلة عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء،المغرب، ط2 1988
16. محمد سويرتي ، النقد البنيوي والنص الروائي ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ،المغرب، 1991 .
17. مرشد أحمد ، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ،2005،